[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.34.3.6]

تراث الإمام الصّادق(ع) من الوجهة الفنّية

الدكتور عبدالكريم الأشتر

«الأدب في غيركتب الأدب» دفعت الكاتب أن يتطرق الى هذا الموضوع حيث اورد في مقاله دلائل شافية على أن بلوغ الأثر في الكلام بما يتوافر في صياغته وأسلوب تناوله، من صفات المهارات الفنية وخصائصها، فهو أدب. فكلام الأئمة وغير الأئمة من أعلام مدرسة النبوة، ومنهم الإمام الصادق الذي امتلأت الكتب بأدعيته وحكمه ووصاياه ورسائله وتحليلاته الفكرية الفقهية والفلسفية وأدلّته العقلية فهو حافل بأسمى معاني الأدب.

فيورد الكاتب خصائص من العصر الذي شهده الإمام الصادق(ع) و الافكار السائدة حينذاك ومن ثم يستشهد باحاديث وكلمات الإمام النابعة من قرارة نفسه الزكية الواقفة بشؤون الدين والدنيا. فتناول الجوانب الأدبية من تراثنا رغم كل الصعوبات التي تفتح آفاقاً جديدة نحو ما يتسم به الأدب.

(١)

فالموضوع الذي اخترت الكلام فيه، تشغلني، بعض مسائله منذ زمن طويل. فإني وجدت تاريخ الأدب العربي يكاد يُغفل ـ إذا استثنينا الشعر في جميع العصور ـ صفحات لا تحصى من الأدب الحي الذي كتبه أو أملاه رجال الحكمة و الفلسفة والكلام، ورجال التاريخ والسير والتراجم والطبقات و الأسمار وغيرها؛ شغلته عنها، فيما يبدو، أنواع الكتابة الأخرى التي كُتبت لمقاصد أدبية صرف، مهما تواضع خطها من جمال التصوير أو التعبير، ومهما تدنت قيمتها الفكرية أو الوجدانية، وعلى ما حفلت به، في العصور المتأخرة، من ضروب التزويق و التنميق، وطغيان النزعة اللفظية وألاعيبها التي شبهها أحد المستشرقين الفرنسيين بألعاب (الأكربات).

فعلى هذا النحو، لصق بأذهاننا أن النثر العربي تقلّبت مذاهبه وانتهت في العصور المتأخرة، إلى ما سماه أحد الباحثين «مذهب التصنع»، بعيداً عن الكتابات الطلقة التي كانت الحياة، في هذه العصور نفسها، تمليها على لسان ابن حزم مثلاً وابن خلدون ومحيي الدين بن عربي وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم.

وعلى هذا النحو أيضاً عُنينا، في تاريخ هذا الأدب، بالشريف الرضي وشعره، ولكنّا لم نُعن بأخيه الشريف المرتضى وأماليه الرائعة التي تشف عن قدرة بيانية خارقة يغذوها علم عزير وذوق يبلغ الغاية في الدقة والرهافة. وعنينا بابن العميد

والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل، ولم نعن بالمسعودي والطبري وابن الجوزي وابن عساكر، فلم ننظر إليهم في تاريخ هذا الأدب إلامن حيث هم أصحاب أخبار تنفع في الدراسات والبحوث.

ثم من هذا الباب، ومن باب التضييق الذي أمليناه على أنفسنا، باسم صراع المذاهب، ونفخ في بوق أصحاب الأغراض، انطمست في تاريخ هذا الأدب صفحات متألقة من كلام رجال آل البيت وأئمتهم، في أ ماليهم وخطبهم وأدعيتهم وحكمهم، فلم يكن الفريق الأكبر منا يعرف عنها شيئاً يغني.

ولو اننا كسرنا هذا الخط في تاريخ أدبنا لوجب أن تتغيّرأو تنعدل كثير من الأحكام فيه، ولا غتنينا بنصوص أدبية عالية القيمة الفكرية الفنية، ولازددنا وعياً بخصائص جنسٍ أو نوع أدبي لم نعن به، فيما أعلم، العناية اللازمة، وهو أدب المناظرات والجدل، الذي تفرقت نصوصه في كتب التراث بمجموعه، في اللغة والأدب والفقه والقضاء والتاريخ والفلسفة وعلم الكلام وغيرها، وألفت فيه كتب أغفلها تاريخ الأدب، مثل (كتاب الإهليلجة) ــ ثمرة شجر فى الهند، لعله شجر الأناناس كما نسميه اليوم ـ الذي طال كلام المصادر على نسبته إلى الإمام الصادق، في مناظرة طبيب هندي لايؤمن إلا بالمعرفة التي تحصّلها الحواس، وينكر أسباب المعرفة الأخرى، ومثل (كتاب الحيدة) الذي كتبه عبدالعزيز الكناني، في مناظرة بشر المريسي من المعتزلة، في حضرة المأمون، حول قضية خلْق القرآن.

إن ما لفتني إلى هذا الموضوع بجملته لَفَتَ رجلاً آخر من الهند، اسمه أبوالحسن علي الحسيني الندْوي، وكيل ندوة العلماء في الهند، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق. فقد جمع في كتابه (مختارات من أدب العرب) نصوصاً جميلة من كتب الحديث والسيرة والتاريخ والاجتماع، إلى جانب نصوص أخرى تمثل للأدب الخالص، بعد أن نعى علينا أن نهمل ذلك الأدب الحي، ونعني كثيراً بأدب الصنعة والمهارات اللفظية، فنضيع على الأدب العربي تراثاً ضخماً كتبه أناس امتلؤوا بقوة العقيدة وحرارة الحياة وصدق الحافز، واتصف أدبهم بالقرب من الطبيعة، وبروعة الأداء ونفوذ الأثر.

ثم إني كنت أمضيت، مع طلبة الدراسات العليا بجامعة دمشق، عاماً كاملاً درسنا فيه، تحت عنوان (الأدب في غير كتب الأدب) نصوصاً اخترتها من كتاب الحيدة، الذي ذكرته منذ قليل، وكتاب التوهم للحارث المحاسبي، من رجال القرن الثالث. ونصاً من كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري، من رجال القرن الرابع، ونصين من كتاب رسوم دارالخلافة لهلال الصابئ، والمنقذ من الضلال للغزالي، من رجال القرن الخامس، ونصوصاً من كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ، وكتاب التوّابين لإبن قدامة المقدسي، ورسالة روح القدس لإبن عربي، من رجال القرنين السادس والسابع وإنما عدّدت أسماءهم وذكرت كتبهم، تعزيزاً لهذا الرأي.

كل كلام يجمع إلى موضوعه، مهما يكن موضوعه، القدرة على بلوغ الأثر، بما يتوافر في صياغته وأسلوب تناوله، من صفات المهارات الفنية وخصائصها، فهو أدب. ذلك لأنه لم يتجه في خطابه، كما يتجه أصحاب العلوم البحث، إي العقول وحدها، وإنما اتجه إلى قوى النفس بمجموعها، بقصد التأثير فيها، عقلاً وشعوراً وخيالاً وذوقاً للجمال وهذا كله ينطبق على اكثر مما كتبه هؤلاء وأمثالهم من رجال العلم والإدراة والسياسة. وينطبق، على نحو لا يحتمل الخلاف أبداً، على كلام الأئمة وغير الأئمة من أعلام مدرسة النبوة، ومنهم الإمام الصادق الذي امتلأت الكتب بأدعيته وحكمه ووصاياه ورسائله وتحليلاته الفكريه الفقهية والفلسفية وأدلّته العقلية وتوافر له، في التعبير عنها، بما يتوافر في كلام أئمة البيت النبوي ورجاله ونسائه، من قدرات فنية تجعل من تراثهم، في الحكمة والدعاء والمناجاة والمناظرة والحوار والخطابة وغيرها، أدباً إنسانياً ساطع الروح، عامراً بالحياة، ملتزماً تطهير النفس الإنسانية من نزعات الجشع والحسد والكِبْر، وما تغري به القوة الغاشمة أصحابها من الظلم والقهر وتزوير الحقائق، وإزاحة الإنسان عن فطرته الخيّرة، وتقويةَ إيمانه بوحدانية الله وعدله، ودعوتَه إلى إحكام الصلة بين قوله وعمله، مما ننصرف، في كلمتنا هذه، إلى بيانه في أدب الإمام الصادق، واستخلاص خصائصه الفنية.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.34.3.6]

(٢)

عاش الإمام الصادق عقدين من القرن الهجري الأول، وما يقرب من خمسة عقود، من القرن الثاني. فحتى نفهم خصائص تراثه، لابد من أن نلمّ بصفات عصره، على قدر من التركيز والاختصار، يعين على استخلاص أبرز خطوط تكوينه الفكري والنفسي.

نحن في غنى عن الإفاضة في ما اكتسب من نشأته في حجر والده الإمام العالم محمدالباقر، ابن الإمام علي زين العابدين الملقّب بالسّجاد ذي الثَفِنات، مما لحق بجبينه من أثر الإطالة في السجود (الثَفِنة ركبة البعير)، ابن الإمام الحسين ابن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب. فهذا إرث النبوة في فقهها للدين وصفاء روحها وعمق إيمانها وروعة بيانها وقوة التزامها بهدْي الإنسان، وإشاعة الحق والخير في مجتمعه، وتطهيرِ روحه من أدران التعصب والكره وطغيان الأثرة والجنوح إلى الظلم.

ثم إنه ولد في السنة التى ولد فيها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، من رؤوس المعتزلة. وعاصر الحسن البصري إمامهم الأول. فقد شهد إذن ظهور الاعتزال والإرجاء (المرجئة) في دولة الأمويين. والاعتزال، في اختصار، دعوة إلى إعمال العقل في فهم الدين وعقائده، وإلى تحريره من وهم الجَبْر (رسوف الإنسان في قيود الأقدار) وتنمية وعيه بقدرة العقل على اختيار الطريق، وبعدل الله في محاسبة الإنسان من بعد. ثم هو دعوة إلى الإيمان بوحدانية الله المطلقة، بعيداً عن التشبيه والحلول وما يتصل بهما من أفكار الشعوب والعقائد التى بدأ المسلمون يخالطونها على إثْر الفتوح في العصر الأموى؛ ودعوة إلى وصل الإيمان بالعمل بأحكام الدين على عكس ما بدأ المرجئة (الداعون إلى الفصل بينهما في الحكم على المسلم) يشيعونه في الناس بتأييد من السلطة الأموية، على ما يبدو، للتغطية على ما يتناقل الناس من ضعف التزام بعض رجالها وخلفائها بأوامر الدين ونواهيه. ونرى، بالرجوع إلى مجموع تراث الإمام الصادق، قربه من فكر المعتزلة لما يرشح به واقع الدولة الأموية السياسي والإداري، وما يشيع فيها من الدعوات، ومن صدى العقائد الوافدة.

على أن في المصادر ما يشير إلى نقد وجّهتْه المعتزلة وأطراف من المعارضة السياسية الى الإمام الصادق، لما يبدي من الحذر في سرعة الانضمام إلى حركات الثورة على الأمويين والعباسيين بعدهم ولقعوده عنها. والحق أننا نجد في بعض ما وصل إلينا من تراثه ما يذكّر بهذا النقد. ولكن ينبغي أن نذكر هنا أن الإمام كان يشهد بعينيه مآسي الثائرين من آل البيت، واحداً بعد الآخر، منذ فتح عينيه على الحياة إلى انقضاء دولة الأمويين. يكفي أن نذكر إخفاق ثورة عمه زيد بن علي، وهو في الثانية والأربعين (١٢٢هـ)، وإخفاق ثورة ابن عمه يحيى بن زيد، وهو في الخامسة والأربعين (١٢٥هـ)، وإخفاق ثورة النفس الزكية (محمد بن عبدالله بن الحسن)، وثورةَ أخيه إبراهيم بن عبدالله بن الحسن، وهو في حوالي الخامسة والستين (١٤٥هـ). و يشهد مصارعهم جميعاً، وما حفلت به كتب التاريخ من صور القسوة في التنكيل بهم. فإذا أضفنا إلى هذا ذكرى مأساة جدّة الأول (الإمام الحسين بن علي) في كربلاء، وهي أم المآسي قاطبة، وكان وعاها منذ أيام الطفولة، أدركنا سرّ الحذر الذي كان يبديه في مجالسه، في وجه السلطة وعيونها، وفي وجه معارضيها أو المدسوسين عليهم وما يشيع في تراثه من قوة الإحساس بخوف المكيدة وشرّ الخلق، حتى لقد بدأ ذلك في نقش خاتمة الذي يحمله في يده، في جميع الروايات المنقولة: «اللهم أنت ثقتي، فقِني شرّ خلقك. أنت ثقتي فاعصمني من الناس. ياثقتي قني شرّ جميع خلقك!» وفي بعض أدعيته، وهذا المعنىٰ شائع فيها: «اللهم من أرادني بسوء فأردْه، ومن كادني فكِدْه، واصرف عني همّ من أدخل علىّ همّه، وامكُرْ بمن مكَرَ بي، فإنك خير الماكرين، وافقأ عني عيون الكفرة الظلمة، الطغاة الحَسَدة».

ويشير تاريخ الإمام إلى أن أناساً خاطبوه في ما يتخذ لنفسه من حسن اللباس. وذكّروه بما نعرف من زهد جدّه أميرالمؤمنين وتقشّفه. وفي كلام منتقديه أيضاً، من أطراف المعارضة السياسية، إشارةٌ إلى ما يميل إليه من الراحة وايثار الظل. ففي أخباره، وبعض كلامه و أدعيته ما يذكّر بما يشير إلى هذا التاريخ. يقول : «إن الله عزّوجلّ يحب الجمال والتجمّل

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.34.3.6]

ويبغض البؤس والتباؤس». «البس وتجمّل، فإن الله جميل ويحب الجمال، وليكن من حلال». ويقول، في ردّه على سفيان الثوري: «اسمع مني وعِ ما أقول لك، فإنه خير لك عاجلاً وآجلاً إن أنت مُتَّ على السنّة ولم تمت على بدعة، أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم كان في زمان مقفر جدْب. فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق الناس بها أبرارها لافجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لاكفّارها. فما أنكرتَ ياثوري؟ فوالله إني، مع ما ترى، ما أتى عليّ، منذ عَقَلْتَ، صباح ولا مساء ولله في مالي حق أمرني أن اضعه موضعاً إلا وضعتُه». وفي دعائه يقول: «أسألك اللهم الرفاهية في معيشتي ما أبقيتَني، معيشة أقوى بها على طاعتك، وأبلغ بها رضوانك... ولا ترزقني رزقاً يُطغيني، ولا تبتلني بفقر أشقى به، مضيَّقاً عليّ. اعطني حظاً وافراً في آخرتي، ومعاشاً واسعاً هنيئاً مريئاً في دنياي. ولا تجعل الدنيا عليّ سِجناً، ولا تجعل فراقها عليّ حزناً. أجرني من فتنتها سلياً، واجعل عملي فيها مقبولاً، وسعيي فيها مشكوراً».

والقصد مما نقوله هنا أن نلمّ، اولاً، ببعض المحاور الفكرية والنفسية التي يدور من حولها كلام الإمام وأدعيته، وأن ندلّ، ثانياً، على قرب النصوص التى خلّفها من واقع الحياة الفكرية والسياسية في عصره، ونتلمّس، ثالثاً، متانة الصلة بين قوله وسيرته، مما يرفع تراثه الفكري والأدبي إلى أن يكون صورة صادقة لحياته، في مرحلة مضطربة من التاريخ يَعسُر فيها على غير الممتازين من قادة الرأي أن يحتفظوا فيها بوضوح الرؤية ووحدة الفكر والعمل.

(٣)

نرجع الآن إن التراث الذي خلّفه لإمام الصادق، فنرى ما وصل منه موزّعاً في كتب الفقه وأصوله وكتب التاريخ والأدب والمذاهب والأخبار والأمالي والتراجم وغيرها. فنتمنّى لو انّ أناساً فكّروا في جمعه وتصنيفه، و أصدروه في مجموعة موحدة، كاملة، وفي جمع تراث الأئمة الآخرين، وتراث رجال آل البيت، على النسق نفسه.

ومن هذا التراث الذي يعني في هذا الموضوع بعض رسائله التي قالوا: إن تلميذه جابر بن حيّان كان جمعها في ألف ورقة، وعدّتها خمسائة رسالة. والكتاب الذي سمّوه توحيد المفضل، مما أملاه على تلميذه المفضّل بن عمر الجُعْفى وفيه رد على الدهرية والملاحدة، ومقاطع من أدعيته، وجمل من حكمة إلى جانب طائفة من وصاياه وردوده.

فأمّا كتاباه (مصباح الشريعة) و (كتاب الإهليلَجة) ففي نسبتهما إليه كلام يصعب الآن الفصل فيه. وكنت أتمنى أن يشمل كلامي الكتاب الثاني، ليكون مثلاً من أمثلة أدب المناظرات الذي أشرت إليه.

لا مفرّ إذن من أن اكتفي الآن بهذا القدر من تراث هذا الإمام العظيم الذين ملأ الأرض علماً، كما قالوا. وهو، في كل حال، يفي، في هذه الكلمة، بما نقصد اليه من استخلاص أبرز خصائص فكره الأدبي، بما يمكن اجماله فيما يلي:

١. إطالة الفكر في الأشياء ومعانيها مع دقة الملاحظة وغزارتها. وتبدو، أوضح ما تبدو، في حِكمَه وردوده على أصحاب المذاهب المادية من الدُّهرية وغيرهم، وإثبات وجود الصانع الواحد، وتفسير أسباب الصنعة على هذا الوجه، والدلالة على احكامها بما يضمن سلامة العيش وحسن التدبير، على مثال قوله، في خلوه العينين والحواس في الإنسان، مما رواه عنه المفضل بن عمر: «انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس التي خُصّ بها الإنسان في خلقه، وشرُف بها على غيره: كيف جُعلت العينان فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة، ليتمكن من مطالعة الأشياء. ولم تُجعل في الأعضاء التي تحتهم كاليدين والرجلين فتعترضها الآفات ويُصيبَها من مباشرة العمل والحركة ما يعلّلها ويؤثر فيها وينقص منها، ولا في الأعضاء التي وسط البدن كالبطن والظهر، فيعسُر تقلّبها واطّلاعها نحو الأشياء. فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع، كان الرأس أسنى المواضع للحواس، وهو بمنزلة الصومعة (المنارة) لها».

فهذا كلام من أعمل فكره طويلاً في خلق الأشياء، ووصل إلى الحكمة فيه، على الوجه الذي تمَّ فيه الخلق. وكتاب التوحيد (أمالي المفضل) يجري كله على هذا النسق من عمق التأمل في

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.34.3.6]

الكـون وكائنـاته، واستخـلاص حقائق خلْقهـا، في مثل هـذا البيان الـدقيق الواضـح، البعيد عن كـل تعمّل، القريـب من الطبيعة، الـوافي بالقصد في غير تطـويل ولا حشـو ولا تكرار، والقادر على استيعاب ما تولّده قوة الملاحظة ودقّتها من تشعّب الفكرة وقوة الإحساس بها.

وفي حكمه الكثيرة التي سماها بعضهم (نثرالدرر) مثل هذا الغوص في حقائق الخلق وأسرار النفـوس، ولاتكتمل عدّته إلا لمن جمع من قوة الفطرة طول النظر وحدّة الملاحظة، وتوافرت له ثقافـة إنسانية منـوّعة وخبرة عميقة بـأحوال النفس الإنسـانية وحقائقها:

يقـول في بعـض حِكَمـه: «السريرة إذا صلُحـتْ قـويـت العلانية».

يقول: «من لم يغضب من الجفوة لم يشكر النعمة».

ويقول: «ليس لإبليس جند أشدُّ من النساء والغضب».

ويقول: «إزالة الجبال أهون من إزالة قلب عن موضعه».

ويقول: «وهذه تروى للحسـن البصري معاصره أيضاً ـ: لم يخلق الله يقيناً لاشك فيه، أشبهَ بشك لايقين فيه، من الموت».

كيف يتيسر، إلا للممتـازين الذيـن اطالوا النظـر في الحياة والإنسان، الوصول إن مثل هذه المعـرفة بالنفس الإنسانية فيما تظهر وتبطن، وما تعني قوة إحساسها بالحياة ومواقفها، وما يقرّ في أعماقها من ذهول الرؤية في مواجهة الموت؟ وما أعرف قولاً، في وصف حدّة الغضب وما يقول إليه من ضلال الرشد، كقول الإمام في جمعه بينه وبين أعتى الغرائز البشرية!

٢. تنوّع المعرفة وتماسكها، فيما يتصل بشؤون الدين والدنيا جميعاً، وسعـة الإطلاع على الثقـافات المختلفـة. والذي أعـان الإمام على الإلمام بهذه المعارف والثقافـات إدراكه الحي بما تولّد المعرفـة في النفس من سعادة الإحسـاس بقوة الحياة وخصـوبة معانيها، واختلاف ألوانها وطعومها. يمثل لهذا قوله: «لا ينبغي لمن لم يكن عـالماً أن يُعَدّ سعيداً»! وقـوله: «الناس اثنـان: عالم ومتعلّم. وسائر الناس هَمَجَ». ومن هنا تكثر دعواته إلى تنشيط العقـل وتقويتـه بتطويـل التفكير في الأشياء. يقـول: «دعامـة الإنسان العقل... وبالعقل يكمـل، وهو دليله ومبصّره ومفتاح أمره». ويقول: «العامل على غير بصيرة السائر على غير طريق، فلا تزيده سرعة السير إلا بُعداً». ويقول: «إياكم والغفْلة. فإنه من غَفَل فإنما يغفُل عن نفسه»!

٣. تـوجهه في أدبـه إلى الفـرد والجماعـة معاً، وتقـويـة روح الجماعة: «لكـل شيءٍ شيءٌ يستريح إليه. وإن المؤمـن يستريح إلى أخيه المؤمن كما يستريح الطير إن شكلـه». وتأتي دعوته إلى العمـل، وإلى تقـويـة اللحمـة بين القـول والعمـل، في هـذه الطريق. وهو ماكنا أشرنا إليه من قبل، في اشارتنا إلى ما كانت المرجئة تـدعو إليه، مـن الفصل بينهما. يقـول الإمام: «الإيمان عمـل كله». و «لا يثبُـت الإيمان إلا بعمـل». و «كـونوا دعـاة الناس بأعمالكـم ولا تكونوا دعاة بألسنتكـم». و «إنما تفاضل القوم بالأعمال».

وفي هـذه الطريـق أيضاً، تقـع دعـوته إن اليقظـة والحذر ووضـع الأشيـاء في مواضعهـا، وتحريـر الإنسـان من عبـوديـة الإنسان: «مـن أطاع المخلوق في معصيـة الخالق فقـد عبده»! وفي إجابته من سأله عن حداليقين: «ألاتخاف مع الله شيئاً». و «كل ريـاء شرك. إنه من عمل للنـاس كان ثوابـه على الناس، ومـن عمل للـه كان ثـوابـه على الله». وفي توصيتـه بالمسـاكين والضعفـاء: «إن عيسـى بـن مريـم عليـه السـلام لما أراد وداع أصحابه، جمعهم وأمرهم بضعفاء الخلق، ونهاهم عن الجبابرة».

٤. قوة الصياغة، وإيجازها بما لايخلّ بالقصد ويفي بالمعنى، مع حـرارة الروح، وسطوع الاستجابـة النفسية لدواعـي الحياة، والقرب فيها من الطبيعة الجاريـة، وبناء الصورة، إذا احتاجها في تشخيص معـانية وتقـوية أثـرها في النفـس، من معطيـات الحواس، لتكون أنفـذ وأوضح. وهـذه صفات أدبـه كله. بـل لعلهـا صفات أدب المدرسـة التـي ينتمـي إليها، مـدرسـة آل البيت، ابتـداءً من أدب أميرالمؤمنين ربيـب رسول الله، وانتهـاء بأدب الأئمة ورجـال آل البيت جميعاً. ينطبق ذلـك على الفكر الأدبي، وينطبق أيضاً، بمقـدار ما يستدعي القصـد، ويستلزم التعبير من الـدقة والوضـوح والاتزان، على الفكـر العلمي، في الفقه والسياسة والاجتماع والتفسير.

وإنما يجتمـع ذلك مـن امتـلاء النفـس بالفكـرة، وحـرارة

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.34.3.6]

الإحساس بها، وبما تستلزم العقيدة، في بيان مقاصدها، من قوة التركيز ونفي الفضول اللفظي، وما يدعو تقريبها إلى الناس، من شخوص الصورة ووضوح التمثيل.

وفي كلام الإمام الصادق أقوال عن البلاغة وصفاتها تقرّب ما انتهينا إليه. يقول: «ثلاثة فيهن البلاغة: التقريب من معنى البغية، والتبعد من حشو الكلام، والدلالة بالقليل على الكثير». ويقول: «من عرف شيئاً قلّ كلامه فيه» يريد: أن من يعرف الشيء يصل إليه في أقلّ الكلام. ويقول: «وإنما سمي البليغ بليغاً لأنّه يبلغ حاجته بأهون سعيه». ويقول: «ليست البلاغة بحدّة اللسان ولا بكثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة».

فمن هنا نصل إلى فهم خصائص مانقلنا ومانتقل في هذا الحديث، من أقواله وحكمه التى تتحقق فيها صفات البلاغة التي نص عليها. يقول مثلاً: «كثرة النظر في الحكمة تلقّح العقل». فقد جمع ما يتمثل في النفس من صور اللقاح ومعانيه وأثره في تنشيط حركة الحياة وتوليد المعاني وإخصابها، في لفظ واحد موح بهذه الدلالات كلها. ويقول: «من تعلّق قلبه بحب الدنيا، تعلّق من ضُرّها بثلاث خصال: همّ لايفنى، وأمل لايُدرك، ورجاء لايُنال». جمع حب الدنيا وأذاها معاً في لفظ واحد كرّره «التعلّق» كأنهما وجهان لحقيقة واحدة لا تنفصل إحداهما عن الأخرى. ووسع في ألفاظ قليلة مقسّمة، معانيُ الخيبة كلّها. ويقول أيضاً في مثل هذا المعنى: «ما فتح الله على عبدٍ باباً من الدنيا إلا فتح عليه من الحرص مثليه». فكم يحتاج مثل هذا الكلام، في كثافة دلالاته ومعانيه، وما توحي الصورة فيه، وبيان ما طبعت عليه النفس البشرية من حب التملك، من الشرح والتفصيل ويقول: «ما الدنيا؟ وما فيها؟ هل هي إلا سَدَّة فورة (يريد: سكتة الجوع)، وستر عورة»؟ فقد لجأ في تشخيص المعنى وتكثيفه إلى صورتين حسيتين، وجمع حياة الإنسان الماديةَ كلها في أربع كلمات!

٥. ننتهي أخيراً إن أدب الدعاء، فهو أكثر صفحات تراثه حرارة، وأدلُّها على سعة الرّوح وخصوبة النفس وغني اللغة وطواعيتها. والدعاء يقتضي مالا تقضي الحكمة من الإيجاز، إذ تسيل النفس فيه برجائها وخوفها وظمئها إلى السكينة وتطلبها إلى الخلاص، مما لا تستريح فيه القلوب المتعبة إلا باستخراج مكنونها ونثره أمام الله. فمما يلفت الناظر في أدب الإمام أن يجمع بين ما تقتضيه الحكمة والموعظة والخطاب الفقهي والأدبي، من كلف بالإيجاز، وبين مما يقتضيه الدعاء من الإفاضة والتلوين والإلحاح في الرجاء والبث، وأن يبلغ من القدرة في الحالين ما يصعب الوصول إليه إلا على من يملك من رحابة الفكر والخبرة بأسرار البيان وغنى اللغة ومرونة استجاباتها لحاجات التعبير، ما كان يملكه الإمام. ولنقرأ الآن أسطراً من دعاء، دعا، به في آخر شهر رمضان: «إلهي! فإني أعترف لك بذنوبي، وأذكر لك حاجتي، وأشكو إليك مسكنتي وفاقتي وقسوة قلبي، وميل نفسي، فإنّك قلت: (فما استكانوا لربهم وما يتضرّعون). وها أنذا قد استجرت بك، وقعدت بين يديك مسكيناً متضرعاً، راجياً لما أريد من الثواب بصيامي وصلاتي. وقد عرفتَ حاجتي ومسكنتي إلى رحمتك، والثباتِ على هداك، وقد هربت إليك هرب العبد السوء إلى المولى الكريم»... «أعوذ بجلال وجهك الكريم أن ينقضي عني شهر رمضان، أو يطلع الفجر من ليلتي هذه ولك عندي تبعة أو ذنب تعذبني عليه يوم ألقاك...».

فهذا الدعاء يمثل لخصائص أدب الدعاء في تراثه كله، وهي الخصائص التي ذكرتها منذ قليل. وفيه نلمس عمق الإحساس بمكان الله من القلب، وحرارة النفس في توجهها إليه، وقد يعجب قارئ هذا الأدب أن تلوّن المعاني والإحساسات، في مواقف الدعاء المتشابهة، هذا التلوين.

وفي الختام لا يزيد ما قلته في هذه الكلمة، عن أن يكون نظرة طائرة في تراث الإمام الصادق، قصدت منها أن ألفت النظر إلى درسه من الجانب الفني، ففيه من الغنىٰ والرحابة والعمق والجمال والصدق والاستجابة للطبع والبعد عن اللفظية ما تصغر إلى جانبه آلاف الصفحات التي ننكب على درسها، من أدب الصنعة في عصور الهُزال الفكري والروحي التي ما نزال نعاني من بعض رواسبها إلى اليوم.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-26]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.34.3.6]